

الجبرتي وشيوخ القرن الثامن عشر

د. عبد الله محمد عزباوى

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

كلية التربية بالفيوم — جامعة القاهرة

اهتم المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي فى تاريخه الشهير « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » بتصوير المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر بطوائفه المختلفة : المماليك ، والعلماء ، والتجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة •

ولما كان الجبرتي هو أحد شيوخ القرن الثامن عشر ، وأنه قد نشأ فى بيت عام وثرى ، فقد كان والده الشيخ حسن الجبرتي عالما كبيرا من علماء عصره ، وكان منزله مركزا لالتقاء العلماء ، فان لابد وان ينال منه مجتمع العلماء اهتمام أكثر من غيره ، وان كان اهتمامه بتصوير مجتمع المماليك لا يقل أهمية عن اهتمامه بمجتمع العلماء •

وقد وقف الجبرتي فى كتابه « عجائب الآثار » لشيوخ القرن الثان عشر بالمرصاد ، يرصد حركاتهم وتصرفاتهم ، ويصدر أحكامه المختلفة عليهم •

وقد نظر الجبرتي الى هؤلاء الشيوخ من خلال معايير وضعها مسبقا فى مقدمة كتابه حيث أنه اعتبرهم الا ورثة الانبياء ... واحباب الله ، وصفوته من خلقه ومشرق نور حكمته « ^(١) وان العالم

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، ج ١ ،

الذى يستحق أن يكون وريث الانبياء هو ذلك العالم الذى يقيم قواعد العدل ويظهر الحق ، الزاهد فى الدنيا ، والذى يخشى ربه (٢) .

وهكذا نستطيع القول بأن الجبرى قد وضع مقياسين للحكم على تصرفات الشيوخ وتحديد موقفه منهم وهما : —

أولا : الزهد والورع .

ثانيا : مدى اهتمام العالم باقامة قواعد العدل .

ونستطيع القول مسبقا ، اذا صح هذا الافتراض السابق ، ان الجبرى سيعجب بالشيوخ المتصوفة والزاهدين ، والعلماء المخلصين لعلمهم . وأنه سينتقد ويهاجم هؤلاء الذين تخلوا عن صفة الزهد والورع ، واهتموا بجمع المال .

أولا — الشيوخ الذين أعجب بهم الجبرى :

وهؤلاء حسب المقياس الذى وضعه الجبرى ، ينقسمون الى ثلاثة أقسام :

(أ) الشيوخ المتصوفة .

(ب) الشيوخ الزاهدين المبتعدين عن مخالطة الناس .

(ج) الشيوخ المخلصون لعلمهم .

(د) ونستطيع أن نضيف اليهم الشيوخ المتصلون به .

(أ) الشيوخ المتصوفة :

أعجب الجبرى بالشيوخ المتصوفة ومدحهم ، فيقول عن الشيخ ربيع الشيال ت ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م بأنه « كان صالحا ورعا ناسكا ،

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

حافظا لأوقاته مداوما على الصلوات والعبارات والافكار دائم الاقبال على الله لا يرى الا في طاعة، اذا أحرم في الصلاة يصفر لونه وتأخذه وجدة ، فاذا نطق بالتكبير يخيل لك أن كبده قد تمزق » (٣) •

ولايمان الجبرتي بالكرامات فهو يعجب بالشيخ محمد القليني ت ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م فيقول : « كان له كرامات مشهورة ومآثر مذكورة ، منها أنه كان يثشق من الغيب لأنه لم يكن له ايراد ولا ملك ولا وظيفة ولا يتناول من أحد شيئا ، ينفق انفاق من لا يخشى الفقر واذا مشى في السوق تعلق به الفقراء فيعطيهم الذهب والفضة واذا دخل الحمام دفع الاجرة عن كل مافيه » (٤) •

ويقول الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الحجازي ت ١١٧٢ هـ / ١٧٥٨ م ، أنه : « أحد مشايخ الطريق ، صاحب الكرامات الظاهرة والانوار الساطعة الباهرة •• كان كثير الزيارة لمشاهدة الأولياء متواضعا لا يرى لنفسه مقاما ، متحرزا في مأكله وملبسه لا يأكل الا ما يؤتى اليه من زرعه من باده من العيش اليابس مع الدقة ، وكانت الامراء تأتي اليه لزيارته ، ويشتمز منهم ويفر منهم في بعض الاحيان ، وكل من دخل عنده يقدم ما تيسر من الزاد من خبزه الذي يأكل منه » (٥) •

ويتحدث عن الشيخ محمد الحفنى ت ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م شيخ سجادة السادة الخلوتية بأنه « كان على مجالسه هيبة ووقار ولا يسأله أحد لمعابته وجلالته •• وكان كريم الطبع جدا وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمته ، جميل السجايا ، مهيب الشكل ، عظيم اللحية ، أبيضها ، كأن على وجهه قنديلا من النور » (٦) •

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٤

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٩

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٠

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠

ويبلغ اعجاب الجبرتي بالشيخ الحفنى أن يقول عنه أنه بعد وفاته « ابتداء نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية ، وظهر مصداق قول الراغب أن وجوده أمان على أهل مصر من نزول البلاء ، وهذا من المشاهد المحسوس وذلك أنه إذا لم يكن فى الناس من يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الهدى ، فسد نظام العالم وتنافرت القلوب ومتى تنافرت القلوب نزل البلاء » (٧) .

ومن الشيوخ المتصوفة الذين أعجب بهم الجبرتي الشيخ محمود الكردي ت ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م اليمنى الأصل ، فيقول ، عنه أنه : « صاحب الكرامات الظاهرة والاشارات الباهرة .. كان لكلامه وقع فى النفوس سليم كأنها خزرات نظم فى جيد حسناء لا ينطق الا بحكمة أو موعظة أو مسائل دينية أو حكاية تتضمن جوابا عن سؤال يسأله بعض الحاضرين » (٨) ، ويصف اخلاقه فيقول عنه أنه : « لا تكاد تسمع فى مجلسه الذنوب والمعاصى ، كثير التواضع ، كثير الاحسان للفقراء والمساكين ، لا يمسك من الدنيا شيئا ، جميع ما يأتيه ينفقه فى طاعة الله ، ما أمسك بيده درهما ولا دينارا قط ، أخذ بالتبرع فى جميع أموره ، ليس له هم الا أمور الآخرة ، لا يهتم بشأن الدنيا ، أقبات أو أدبرت كفاه الله مؤنة الدنيا » (٩) .

ويعجب الجبرتي أيضا بالشيخ الصوفى الشهير أحمد الدرديرى ت ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م فيقول عنه أنه : « كان سليم الباطن ، مذهب النفس كريم الاخلاق .. يأمر المعروف وينهى عن المنكر ويصدع بالحق ولا يأخذه فى الله لومة لائم وله فى السعى على الخير يد بيضاء » (١٠) .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٩٠

(٨) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦١ ، ٦٤

(٩) المصدر السابق ، ص ٦٤

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٤٧

ويمدح الجبرتي محمد افندى البكرى ت ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م شيخ السجادة البكرية في مصر ، فعد الترجمة له ، قدمه لمقدمة طويلة قال فيها أنه : « نادرة الزمان وعزة وجه العصر » انسان عين الاقليم ، فريد عقد المجد التنظيم ، جامع الفضائل والمحاسن ، ومظهر اسم الظاهر والباطن ، من ليس رداء النجاية في صباه ، ولاح عنوان المكارم على صحائف علاه ، ولم تقصر عليه أثواب مجده التي ورثها عن أبيه وجده ، فعلى جبينه نور النسب يخبر أن خلف الدخان لهب » (١١) .

ومن الصوفية الذين أعجب بهم الجبرتي وامتدحهم ، الشيخ محمد ابن سيرين الشافعي الخلوتي ت ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م الذي يقول عنه بأن : « له فهم جيد مع حدة الذهن ، وأقبلت عليه الناس بالمحبة ونشر له القبول عند الامراء والوزراء ، وقبلت شفاعته مع الانجماع عنهم وعدم قبول هداياهم .. واشتهر ذكره في الافاق وانتشرت في الكون اخباره ، وازدحمت على سدته زواره الى أن أجاب الداعي ونعته النواعي .. ولم يخلف بعده مثله ، وبه ختمت دائرة المسلكين من الخلوتية ورجال السادة الصوفية » (١٢) .

(ب) الشيوخ الزاهدون المتعدون عن مخالطة الناس :

أعجب الجبرتي بهذا الفريق من الشيوخ الذي يزهد في الدنيا ويبتعد عن مخالطة الناس ولا يقبل الدعوة الى ولائم الامراء ، ويبتعد عن سفاسف الامور . فنراه يقول عن الشيخ يوسف السنبلاويني الشهير برزة ت ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٣ م بأنه « كان وجيها محتشما ساكن الجأش وقورا بهي الشكل قانعا بحاله لا يتدخل كغيره في أمور الدنيا » (١٣)

(١١) المصدر السابق ، ص ٢٥١

(١٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٥٦

(١٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤

كما يصف الشيخ سليمان البيجرسي ت ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م بأنه :
« كان انسانا حسنا حميد الاخلاق متجمعا عن مخالطة الناس مقبلا
على شأنه وقد انتفع به أناس كثيرون » (١٤) .

ويصف الشيخ أحمد البرماوى ت ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م بأنه :
« كان منجمعا عن الناس قنعا راضيا بما قسم له لا يزاحم على
الدنيا » (١٥) . ويبلغ من اعجاب الجبرتي بالشيخ البرماوى أنه يدعو
لابنه الشيخ مصطفى فيقول : « بارك الله في ولده الشيخ مصطفى
وأعانه على وقته » (١٦) .

ومن الشيوخ الزاهدين الذين أعجب بهم الجبرتي الشيخ
محمد عبد الفتاح المالكي ت ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م الذي بعد أن أتم
دروسه بالأزهر « سافر الى بلده — كفر حشاد بالمنوفية — وأقام
بها يفيد ويفتي ويرجعون اليه في قضاياهم ودعوايهم فيقتضى بينهم
ولا يقبل من أحد حصاله ولا هدية » (١٧) .

ويعجب الجبرتي كذلك بالشيخ محمد الحصافي ت ١٢٢٢ هـ /
١٨٠٧ م فيقول عنه أنه : « عاش طول عمره منعكفا في زوايا الخمول
منعزلا عن الدنيا وهي منعزلة عنه ، راضيا بما قسم الله له ، قانعا
بما يسره له مولاه لا يدعى في وليمة ولا ينهمك على شيء من أمور
الدنيا » (١٨) .

ويصف الشيخ عبد المنعم العماوى ت ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م فيقول :
« ولم يزل ملازما على القاء الدروس بالأزهر على طريقة المتقدمين مع

(١٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤

(١٥) المصدر السابق ، ص ٧٦

(١٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٧) المصدر السابق ، ص ٧٧

(١٨) المصدر السابق ، ص ٧٧

الفقه والديانة والانجماع عن الناس ، راضيا بحاله ، قانعا بمعيشته ليس بيده من التعلقات الدنيوية سوى النظر على ضريح سيدي أبو السعود أبي العشائر ولم يتجراً على الفتيا مع أهليته لذلك وزيادة ، ولم تطمع نفسه فزخارف الدنيا وسفاسف الامور مع التجميل في اللبس والركب واظهار الغنى وعدم التطلع لما في أيدي الناس ، ويصدع بالحق في المجالس ولا يتردد الى بيوت الحكام والاكابر الا في النادر بقدر الضرورة مع الانفة والحشمة ولا يشكو ضرورة ولا حاجة ولا زمانا » (١٩) •

كذلك يتحدث الجبرتي عن الشيخ على الخضاي الشافعي ت ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م فيقول عنه أنه : « كان على طريقة المتقدمين في الانقطاع للافادة وعدم الرفاهية بما قسم له الله منعكفا في حاله » (٢٠) • ويصف الشيخ مصطفى الصفوي القلعاوي ت ١٢٣٠ هـ / ٨١٥ فيقول عنه : « رحمه الله تعالى فانه كان من أحسن من رأينا سمنا وعلمنا وصلاحا وتواضعا وانكسارا وانجماعا عن خاطة الكثير من الناس مقبلا على شأنه راضيا مرضيا طاهرا نقييا لطيف المزاج جدا محبوبا للناس ، عفا الله عنا وغفر لنا وله » (٢١) •

(ج) الشيوخ المخلصون لعلمهم :

أعجب الجبرتي في تراجمه بالشيوخ الذين أحرزوا مكانة علمية كبيرة لاخلاصهم لعلمهم فيتحدث عن الشيخ أحمد الخليفى ت ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م الذى اشتهر باجادته في التدريس فيقول عنه : « كان آية في الذكاء وحسن التعبير مع البشاشة وسعة الصدر وعدم الملل والسامة وحلاوة المنطق وعذوبة الالفاظ انتفع به كثير من المشايخ » (٢٢) •

(١٩) المصدر السابق ، ص ١٠٤ — ١٠٥

(٢٠) المصدر السابق ، ص ١٢٥

(٢١) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨

ويتضح من ذلك أن مقياس اجادة المدرس في القرن الثامن عشر ، كان حسن التعبير وعذوبة اللفاظ .

ويعجب الجبرتي أيضا بالشيخ حسن البدرى الحجازى ت ١١٣١ هـ / ١٧١٨ م . الاديب والشاعر الشهير الذى انتقد فى أشعاره المجتمع المصرى فى النصف الاول من القرن الثامن عشر فيصفه أنه « كان عالما فصيحاً مفوها متكلماً منتقداً على أهل عصره وابناء عصره » (٢٣) . كما يصف طريقته فى الشعر فيقول أن « له فى الشعر طريقة بديعة وسאיقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما تجد فى نظمه حشواً أو تكلمة » (٢٤) .

ومن الشيوخ الذين أعجب بهم الجبرتي لاخلاصهم فى علمهم ، الشيخ على العقدى ت ١١٤٣ هـ / ١٧٢١ م الذى كانت تقصده الطلبة من البلاد البعيدة فيقول عنه : « وبالأجملة فكان من حسنات الدهر ونادرة من نواذر العصر » (٢٥) .

ويعجب الجبرتي كذلك بالشيوخ الذين يقرأون أصول الكتب ولا يلجأون الى الشروح والحواشى ، ولذا فانه يمدح أحمد أفندى الواعظ التركى ت ١١٦١ هـ / ١٧٤٧ م فيصفه بأنه كان « من أكابر العلماء أماراً بالمعروف ولا يخاف فى الله لومة لائم » ، وكان يقرأ الكتب الكبار وأباحث العلماء على طريق النظر » (٢٦) .

ويمدح الشيخ أحمد بن سلامة الشافعى المعروف بأبى سلامة ت ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م الذى كان يهتم أيضا بقراءة كتب الأصول التى كان قد أهملها العلماء فى العصور المتأخرة فيقول عنه بأنه « قد تبحر فى الاصول والفروع ، وكان مستحضراً للفروع الفقهية والمسائل

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٧٥

(٢٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٨٧

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

الغامضة في المذاهب الأربع ، ويغوص بذهنه وقياسه في الاصول الغربية ومطالعة كتب الأصول القديمة التي أهلها المتأخرون ، وكان الفضلاء يرجعون في ذلك اليه ويعتمدون قوله ويعولون في الدقائق عليه » (٢٧) .

وأعجب الجبرتي أيضا بهؤلاء الشيوخ أصحاب الحلقات الكبيرة فنراه يمدح الشيخ عيسى البراوي ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م فيقول عنه أنه « قرأ الدروس في الفقه واحدقت به الطلبة ، واتسعت حلقاته واشتهر بحفظ الفروع الفقهية حتى لقب بالشافعي الصغير لكثرة استحضاره في الفقه وجودة تقريره وانتفع به طلبة العصر طبقة بعد طبقة وصاروا مدرسين » (٢٨) .

ومن الشيوخ الذين اتسعت حلقاتهم وأعجب بهم الجبرتي ، الشيخ عبد الوهاب الشبراوي ت ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م الذي يقول عنه أنه « كان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة ، جميل السيرة مقبلا على شأنه » (٢٩) .

ومن الشيوخ الذين أعجب بهم الجبرتي لتفوقهم العلمي ، الشيخ محمد الامير ت ١٢٣٣ هـ / ١٥١٧ م والذي قدمه عند انترجمة له بمقدمة طويلة وصفة فيها بأنه « العالم العلامة ، الفاضل الفهامة ، صاحب التقارير الرائقة والتأليفات الفائقة شيخ شيوخ أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المتغن في العلوم كلها نقلها وعقليها ، وأدبها ، إليه انتهت الرياسة في العلوم بالديار المصرية ، وباهت مصر سواها بتحقيقاته البهية ، استنبط الفروع من الاصول

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٣ ، ١٦٦ .

(٢٨) المصدر السابق ، ج ١ ، ٣١٢ .

(٢٩) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦١ .

وأستخرج نفائس الدرر من بحور المعقول والمنقول ، وأودع الطروس فوائد وقلدها عوائد وفرائد » (٣٠) .

والى جانب هؤلاء الشيوخ الذين أعجب بهم الجبرتي لعلمهم ، هناك مجموعة أخرى من الشيوخ أعجب بهم الجبرتي مع أبداء التحفظ ، من هؤلاء الشيخ محمد العوفي المالكي ت ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م الذى يقول عنه أنه كان « عالما متحصلا باحثا متقننا غير عسر ابديهة شاعرا ماجنا خليعا ، ومع ذلك كانت حاقه درسه تزيد على الثلثمائة فى الأزهر » (٣١) .

ومن هذه المجموعة من العلماء الشيخ أحمد الدمنهورى ت ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م الذى ألف فى كل علم وفن الا أنه كان شحيحا بعلمه على الناس ، فيقول الجبرتي عنه أنه « كانت له حافظة ومعرفة فى فنون غريبة وأفتى على المذاهب الأربعة ، ولكن لم ينتفع بعلمه ولا بتصانيفه ليخله فى بذله لأهله ولغير أهله ، وربما يبيح فى بعض الاحيان لبعض الغرباء فوائد نافعة ، وكان له دروس فى المشهد الحسنى فى رمضان كان يخطبها بالحكايات وبما وقع له حتى يذهب الوقت » (٣٢) .

(د) الشيوخ المتصلون بالجبرتي :

ونقصد بهم والده « الشيخ حسن الجبرتي » وأسائذته والده وأصدقاء والده كذلك وتلامذته وأسائذته هو وأصدقائه . والجبرتي حين أعجب بهم ، وعلى الرغم من انحيازه الواضح عند الحديث عليهم ، الا أنه كان موضوعيا ، فهؤلاء الشيوخ المتصلون به كانت تتوفر لديهم

(٣٠) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٤

(٣١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

المقاييس التي طبقها على غيرهم وهي الزهد والورع ، والمكانة العلمية .

ومما لاشك فيه أن المثل الأعلى للعالم أو الشيخ لدى الجبرتي ، كان والده الشيخ حسن الجبرتي ، الذي ترجم له ترجمة طويلة تعتبر من أطول التراجم التي كتبها الجبرتي وقد حفلت هذه الترجمة بالمديح والثناء على الشيخ حسن الجبرتي ، فقد قدمه بمقدمة طويلة وصفه فيها بأنه : « الامام العلامة والخير الفهامة ، حامل لواء العلوم على كاهل فضله ، ومحرر دقائق المنطوق والمفهوم بتحريره ونقله ، من تكلمات بحبره عيون الفتى وتشنفت المسامع بما عنه يروى ، وارتفع من خضيض التقليد الى ذرا الفضائل ، وسابق في حلبة العلوم فحاز قصب الفواضل ، الروض النضير الذي ليس له في سائر العلوم نظير ، وهو في فقه النعمان الجامع الكبير ، عمدة الانام ، وفيلسوف الاسلام ، سيدي ووالدي بدر الملة والدين » (٣٣) .

ويتحدث الجبرتي عن اشتغال والده بالرياضيات والفنك فيقول أنه « قد انفتح له الباب وانكشف عنه الحجاب ، وعرف الصمت والارباع والميل الثاني والأول والأصل الحقيقي والمعدل وخالط أرباب المعارف وكل من كان بحر الفن عارف وحل الرموز وفتح الكنوز واستخرج نتائج الدر اليتيم والتعديل والتقويم .. وانتهت اليه الرياسة في الصناعة واذنعت له أهل المعرفة بالطاعة وسلم له عطار وجمشيد الراصد وناظره المشتري وشهد له الطوسي والابهرى ، وتبوأ من ذلك العالم مكانا عليا وزاحم بمنكبه العيوق والشرسا » (٣٤) .

(٣٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٥

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .

ويعصف الجبرتي مكانة والده العلمية بين علماء القرن الثامن عشر فيقول أنه قد « كمل في المعارف والفنون وورعته بالاحلال العيون وعلا شأنه على علماء الزمان وتميز بين الاقران وأذعنت له أهل الاذواق وشاع ذكره في الآفاق ، ووفدت عليه الطلاب البلدانية والواردون من النواحي الافاقية وأتو اليه من كل فج يسعون لميقاته ولزموا الطواف بكعبة فضله والوقوف بعرفاته » (٣٥) .

ويعصف أخلاق والده فيقول أنه « كان رحمه الله عذب المورد للطالبين ، طلق الحيا للواردين ، يكرم كل من أم حماء ، ويبينع الراجي مناه والمقتضى جداره والراغب أقصى مرماه مع البشاشة والطلاقة وسعة الصدر والريافة وعدم رؤية المنة على المجتدى ومسامحة الجاهل والمعتدى مع حسن الاخلاق ، والصفات التي يحدث لها الخناصر كأنها آيات بحداث .

له صحائف اخلاق مهذبة : منها العلا والحجا تنتج وكانت ذاته جامعة للفضائل والفواصل ، منزهة عن النقائص والردائل وقورا ، محتشما في الاعين ، معظما في النفوس ، محبوبا للقلوب لا يعادى أحدا ، ولا يخاصم على الدنيا ، لا تجد من يكرهه ولا من ينتقم عليه في شيء من الاشياء ، وأما مكارم الاخلاق والحلم ، والصفح والتواضع والقناعة وشرف النفس ، وكظم الغيظ ، والانبساط الى الجليل والحقير كل ذلك سجيته وطبعه من غير تكلف ، لذلك ولا يرى لنفسه مقاما أصلا ولا يعرف التصنع في الامور ، ولا دعوى علم ومعرفة مشيخة على التلاميذ والطلبة ولا يرضى التعاضم ولا تقبيل اليد » (٣٦) .

ثم يتحدث الجبرتي عن علاقة والده بالأمراء المماليك ، فيقول

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ .

(٣٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

« وله منزلة عظيمة في قلوب الاكابر والامراء والوزراء ، والأعيان ، ويسعون اليه ، ويذهب اليهم لبعض المقتضيات والشفاعة ، ويرسل اليهم فلا يردون شفاعته ، ولا يتوانوا في حاجة يتكلم فيها ، وله عندهم محبة ومنزلة في قلوبهم زيادة عن نظرائه من الاشياخ لمعرفته للسانهم ولغتهم واصطلاحهم ورغبتهم فيما يعلمونه فيه من المزايا والأسرار والمعارف المختص بها دون غيره وخصوصا أكابر العثمانيين والوزراء وأهل العلوم والفضلاء منهم مثل على باشا بن الحكيم وراغب باشا وأحمد باشا الكور وغيرهم ، ويأتون اليه أحيانا في التبديل وأكرموه وهادوه ، كل ذلك مع العفة والعزة وعدم التطلع لشيء من أسباب الدنيا بوظيفة أو مرتب أو فائز أو نحو ذلك » (٣٧) .

ونلاحظ هنا أن الجبرتي قد ركز على ناحيتين عند الحديث عن والده ، الناحية الأولى ، مكانة والده العلمية ، والناحية الثانية ، زهد والده وورعه وعدم مخاصمته على الدنيا ، وأنه على الرغم من قبوله هدايا الامراء المماليك ، الا أنه كان غفيا عزيزا لا يتطلع لشيء من أسباب الدنيا .

ومن الشيوخ المتصلين بالجبرتي ، وأعجب بهم ، الشيخ على بن اسكندر السيواسي ت ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م وهو من شيوخ والده ، فيصفه بأنه : « كان شبيا في الحفظ والذكاء وحدة الفهم وحسن الالتقاء » (٣٨) .

ومن أصدقاء والده الذين أعجب بهم الجبرتي الشيخ محمد الفلاني الكشناوي السوداني ت ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م الذي كان نازلا بمنزل الشيخ حسن الجبرتي ، فيقول عنه أنه : « كان اماما دراكما متفطنا وله يد طولى وباع واسع في جميع العلوم ومعرفة تامة بدقائق الاسرار

(٣٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

والأنوار» (٣٩) . وأنه كانت له «همة عالية ورغبة صادقة في
تحصيل العلوم المتوقف عليها تحصيل الكتب» (٤٠) .

ويتحدث الجبرتي عن الشيخ مصطفى العزيزي الشافعي
ت ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وهو من أصدقاء والده فيقول ، أنه : «الامام
العلامة والبحر الفهامة ، شيخ مشايخ العصر ، ونادرة الدهر ،
الصالح الزاهد ، الورع ، القانع ... وسمعت وصفه من لفظ
الشيخ الوالد وغيره من مشايخ العصر ، أنه كان أزهد أهل زمانه
في الورع والتقشف في المأكل والملبس والتواضع وحسن الأخلاق ،
ولا يرى لنفسه مقاما ، وكان معتقدا عند الخاص والعام ، وتأتى
الأكابر والاعيان لزيارته ويرغبون في مهاداته وبره ، فلا يقبل من أحد
شيئا كائنا ما كان مع قلة دنياه لا كثيرا ولا قليلا ، وأثاث بيته على
قد الضرورة والاحتياج . وكان يقرأ دروسه بمدرسة السنانية المجاورة
بحارة سكنه بخط الصنادقية بحارة الازهر ، ويحضر درسه كبار
العلماء والمدرسين ، ولا يرضى للناس بتقبيل يده ويكره ذلك» (٤١) .

ونلاحظ أن اهم ما اعجب الجبرتي من خصال الشيخ العزيزي ،
هو الزهد والورع ، وعدم رضائه بتقبيل الناس يده ، وكانت عادة
متبعة في ذلك الوقت أن يقبل الطالب يد شيخه ، وهكذا كان الجبرتي
مثل والده يكره هذه العادة ويعجب بمن لا يتبعونها .

ومن أصدقاء الشيخ حسن الجبرتي الذين أعجب بهم الابن «الشيخ
عبد الرحمن الجبرتي» الشيخ على الصعیدی ت ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م
الذي يصفه بأنه كان «شديد الشكمة في الدين ، يصدع بالحق ، ويكره
سفاسف الامور» (٤٢) . وأنه كان على قدم السلف في الاشتغال

(٣٩) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤٠) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤١) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

والقناعة وشرف النفس وعدم التصنع والتقوى ، ولا يركب الا الحمار ويواسى أهله وأقاربه ويرسل الى فقرائهم ببلده الصلات والاكية والبز والطرح للنساء والعصائب والمداسات وغير ذلك » (٤٣) .

أما تلامذة والده « الشيخ حسن الجبرتي » الذين أعجب بهم « عبد الرحمن الجبرتي » فنجد منهم الشيخ محمد النفراوى ت ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م الذى يصفه بأنه « كان حيدا الحافظة قوى الفهم ، والغوص على عويصات المسائل ودقائق العلوم مستحضرا للمسائل الفقهية والعقلية » (٤٤) .

من تلامذة والده الذين أعجب بهم الجبرتي ومدحهم الشيخ أحمد الراشدى ت ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م الذى يقول عنه أنه « كان حسن التلاوة للقرآن ، حلو الاداء مع معرفته بأصول الموسيقى ، فصلى ، اماما بالامير محمد بن اسماعيل مع كمال العفة والوقار والانجماع ، ثم أقلع عن ذلك وأقبل على افادة الناس » (٤٥) . ويبلغ عن اعجاب الجبرتي به الى القول بأنه « لم يخلف بعده فى جميع الفضائل مثله » (٤٦) .

ومن تلامذة الشيخ حسن الجبرتي الذى رسم لهم مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، صورة طيبة ، الشيخ محمد بن موسى الجناحى ت ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م عالم الرياضيات الشهير ، والذى كان فى نفس الوقت أستاذ عبد الرحمن الجبرتي فيصفه بأنه « كان له دقائق وجودة استحضار فى استخراج المجهولات وأعمال الكسورات والقسمة والجذورات وغير ذلك من قسمة المواريث والمناسخات والاعداد الصم

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤١٦ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

والحل والموازين وما انفرد به عن نظائره » (٤٧) . ثم يشيد الجبرتي بأخلاقه فيقول عنه أنه « كان مهذب الاخلاق جدا لا يعرف الكبر ولا التصنع أصلا ولييس أى شىء كان من الثياب الناعمة والخشنة » (٤٨) .

وكان الشيخ محمد الصبان ت ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م العالم النحوى الشهير ، أحد تلامذة الشيخ حسن الجبرتي ، لذا فان عبد الرحمن الجبرتي ، قدمه عند الترجمة له بمقدمة طويلة وصفه فيها بأنه « الامام الذى لمعت من أفق الفضل بوارقة وسقاه من مورد النмир عذبه ورائقه ، لا يدرك بحر وصفه الاغراق ، ولا تلحقه حركات الافكار ولو كان لها فى مضمار العسل السباق ، العالم التحرير والا وذعى الشهير » (٤٩) لم ينتهز الجبرتي الفرصة للاستفادة بوالده الشيخ حسن الجبرتي فيقول فى معرض اتصال الشيخ الصبان بوالده « وكان خصيصا بالمرحوم الشيخ الوالد ، اجتمع به من سنة سبعين ومائة ألف ولم يزل ملازما له مع الجماعة ليلا ونهارا ، واكتسب اخلاقه ولطائفه وكذلك بعد وفاته ، فلم يزل على حبه ومودته مع الحقير » (٥٠) .

ومن تلامذة والده الذين أعجب بهم الجبرتي وأولاهم عناية خاصة عند الترجمة لهم الشيخ محمد الدسوقي المالكي ت ١٢٣٠ / ١٨١٥ م ، فيصفه بأنه « العلامة الاوحد والفهامة الامجد ، محقق عصره ، ووحيد دهره ، الجامع لاشتات العلوم والتميز عن المتأخرون » (٥١) . ثم يتحدث عن طريقة تدريسه فيقول أنه قد

(٤٧) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٥

(٤٨) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٥١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .

« تصدر للاقراء والتدريس وافادة الطلبة ، وكان فريدا في تسهيل المعانى وتبين المعانى ، يفكك كل مشكل يواضع تقرير ، ويفتح كل مغلق يرائق تحريره ، درسه تجميع أذكيا الطلاب والمهرة من ذوى الافهام والالباب ، مع لين جانب وديانة وحسن خلق وتواضع وعدم تصنع ، واطراح تكلف ، جاريا على سجيته ، لا يرتكب ما يتكلفه غيره من التعاضم وفخامة الالفاظ ، ولهذا أكثر الاخذون عليه والمترددون اليه » (٥٢) .

ونرى هنا مدى اعجاب الجبرتي بالمدرس الذى لا يتصنع ويبتعد عن التكلف ، والذى يدرس على سجيته ، ولا يلجأ الى الألفاظ الرنانة فيردددها ، حتى يعتقد السذج أنه عالم كبير .

أما أساتذة الجبرتي الذين أعجب بهم ، فنجد منهم الشيخ محمد مرتضى الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م وهو من أكثر الشيوخ الذين أثروا فى الجبرتي ، ولذا فقد نال من تلميذه الجبرتي كل اعتزاز وتقدير ، فقد ترجمه الجبرتي فى ترجمة طويلة تعتبر هى وترجمته لوالده الشيخ حسن الجبرتي ، وترجمة الامير محمد بك الألفى من أطول الترجمات التى كتبها الجبرتي .

وقد قدم الجبرتي ترجمة أساتذة الزبيدة بمقدمة طويلة خلع فيها على أستاذه الكثير من الالقاب والصفات ، فقد وصفه فيها « شيخنا علم الاعلام ، والساحر اللالع بالافهام ، الذى جاب فى اللغة والحديث كل فج ، وخاض من العلم كل فح ، المذل له سبل الكلام ، الشاهد له الورق والاقلام ، ذو المعرفة والمعروف وهو العلم الموصوف ، العمدة الفهامة والرحلة النسياء ، الفقيه المحدث اللغوى ، النحوى ، الاصولى ، الناظم ، الناثر » (٥٣) .

(٥٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٥٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

ويشيد الجبرتي بالزبيدي لاهتمامه باحياء طريقة السلف في دراسة الحديث عن طريق ذكر الاسانيد والرواة والخريجين من حفظه على طرق مختلفة ، وفي أمور لم تكن مشهودة في مصر ، وسائر انحاء العالم الاسلامي منذ زمن بعيد ، فجاء الزبيدي وأحيائها ولذا فان الجبرتي يقول عنه : « ولم يزل المترجم — يقصد بالزبيدي — يخدم العلم ويرقى في درع المعالي ويحرص على جمع الفنون التي اغفلها المتأخرون .. » (٥٤) .

أما أصدقاؤه الذين ترجم لهم الجبرتي ووصفهم بأوصاف طيبة ، فنجد منهم الشيخ أحمد العروس ت ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م ، شيخ الجامع الازهر ، الذي يصفه بأنه « كان رقيق الطباع ، سليم الاوضاع ، لطيفا مهذبا ، اذا تحدثت تبعث الدرر واذا لقيته لقيت من لطفه ما ينعش ويسر » (٥٥) .

وتتضح شخصية الجبرتي المعتدلة ، البعيدة عن سفاسف الأمور والبعد عن اللهو والاهتمام بالعلم فقط ، وذلك من خلال ترجمته لكل من صديقيه الشيخ أحمد بن محمد ابن اسماعيل ت ١٢٣١ هـ / ١٨٠٦ م والشيخ اسماعيل الخشاب ت ١٢٣٠ / ١٨١٥ ، الشاعر والأديب الشهير ، ومن خلال الحديث عن صداقته لكل من الخشاب والشيخ حسن العطار ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م .

فهو يقول عن الشيخ أحمد بن محمد بن اسماعيل الذي كان يتفق مع طباع الجبرتي « وكان المترجم يلائم طبع الفقير — يشير الى نفسه — في الصحبة ، فكنت معه في غالب الاوقات اما في الجامع أو في المنزل للطافة طبعه وقرب سني من سنه » (٥٦) .

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٥٥) المصدر السابق ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٥٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٠ .

أما عن علاقته بكل من الادبيين ، الخشاب والعطار ، فقد كانت تجمعهم مسبقا صداقة ، وكانا أحيانا يتنادما في بيته ، وقد أعجب بشعرهما ونشرهما الجبرتي ، فيتحدث عن الشيخ اسماعيل الخشاب أشهر أدباء القرن الثامن عشر ، فيقول أنه « صار نادرة عصره في المحاضرات والمحاورات واستحضر المناسبات ، والماجوسات ، وقال الشعر الرائق ونثر النثر الفائق » (٧٥) • وبأن له « قوة استحضر في ابداء المناسبات بحسب ما يبتغيه حال المجلس ، فكان يجانس ويشاكل كل جليس مما يدخل عليه السرور في الخطاب ، ويجلب عقله بلطف محادثته كما يفعل بالعقول الشراب » (٥٨) • لم يشيد بمكانة صديقيه — الخشاب والعطار — الادبية ، في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع عشر فيقول أنهما كانا « فريدا وقتهما ووحيدا عصرهما » لم يعززا في ذلك الوقت بثالث ، اذ ليس من يدانيهما فضلا عن مساواتهما في تلك الشؤون التي أثبت على الثانى والثالث (٥٩) •

وعلى الرغم من اعجاب الجبرتي بمكانة صديقه — الخشاب والعطار — الادبية ، الا أنه بسبب طبيعته الجادة والانغزالية التي أشرنا اليها ، لم ينساق وراءهما ولذا فانه لما مات الخشاب في عام ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م لم يجد العطار من ينادمه ، وعندئذ ترك نظم الشعر والنثر واتجه الى التأليف في مختلف العلوم والفنون (٦٠) •

واذا كان الجبرتي قد أعجب بشعر ونثر صديقه الخشاب ، الا أنه أخذ عليه بعض أمور انتقده عليها ، وهي تتعلق بسلوك

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ •

(٥٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها •

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ •

(٦٠) المصدر السابق ، الصفحة نفسها •

الخشاب الخصى ، وعدم جديته ، والتي تتنافر مع طبيعة الجبرتي
الجادة ، خاصة اذا ادركنا أن للخشاب شعر في الغزل في المذكر .

وأهم الأمور التي أخذها الجبرتي على صديقه الخشاب ، هي
صداقته للشيخ أبى الانوار السادات الذى كان الجبرتي لا يكن له
الاحترام ، فيقول الجبرتي عن هذه الصداقة « وقد كان له فيه
غلو زائد — يقصد بالضمير الأول الخشاب والضمير الثانى الشيخ
السادات — تأدب فى الجلوس والحديث ، انتقد فيه ، ولم عليه
هذه الامور ، حتى كان لا يخاطبه الا بضمير الغيبة ، حتى ربما وقع
ذلك فى بعض آيات واحاديث كما قدمنا الاشارة بذلك فى ترجمته —
يقصد ترجمة الشيخ السادات — وكان ذلك يوافق عرضه لما جمل
عليه من التعاضم ، وقد كان جاساؤه لما رؤوا محبته لذلك يتشبعون
بالمترجم فى سلوك هذه الشئون ، مع أنه لا داعى ولا باعث لارتكاب
هذه المعاصى طلبا لمرضاة من هو كثير التلوث على جلساته ، وانما
الناس وشأنهم التقليد وفى طباعهم الميل الى ارباب الدنيا ، ولو
لم يفلهم منها شىء ، ولم يكن للمترجم شىء يعاب به الا هذه
الارتكابات » (٦١) .

وبالرغم من أن الجبرتي يذكر أن الخشاب لم تكن له عيوب غير
انقياده للشيخ السادات الا أنه يعود ويأخذ عليه انقياده لزوجته
ويشير من طرف خفى لجمعه المال بطرق غير مشروعة ارضاء لها
فيقول : « والمترجم — يقصد بالخشاب — طوع يدها — يقصد زوجة
الخشاب — فى كل ما طلبته وما كلفته به تسخيرا من الله تعالى ، وكل
ما وصل الى يده من حرام أو حلال فهو مستهلك عليها وعلى أقاربها
وخدمها لا للذة فى ذلك حسية ولا معنوية لانها فى ذاتها عجز
شوها ، وهو فى نفسه مخيف البنية ضعيف الحركة جدا بل معدومها ..

مع أنه كان كثير الانتقاد على غيره فيما لا يدانى فعله وانقياده
الى المرأة وحواشيها (٦٢) .

ثانيا - الشيوخ الذين انتقدهم الجبرتي :

وهؤلاء ينقسمون الى قسمين :

(أ) فريق انتقده الجبرتي من طرف خفى .

(ب) فريق انتقده الجبرتي وهاجمه صراحة .

(أ) الشيوخ الذين انتقدهم الجبرتي من طرف خفى :

انتقد الجبرتي من طرف خفى بعض شيوخ القرن الثامن عشر ،
وتلمذ عليهم ، وان لم يهاجمهم صراحة ، هؤلاء الشيوخ ، هم الذين
كانوا في مبدأ أمرهم فقراء ثم أصبحوا أغنياء ، عن طريق الهدايا
التي تلقوها من الامراء أو التجار الاغنياء . هذا اذا وضعنا
في الاعتبار اعجاب الجبرتي بالشيوخ الذين كانوا يرفضون الهدايا
فاشارته لحصول هؤلاء العلماء على الهدايا ، التي هي مصدر غنائمهم ،
تعنى عدم رضائه عن هذا السلوك من جانبهم ، الذي يتنافى مع صورة
العالم المثالي الزاهد في الدنيا والذي لا يطمع في زخارف الدنيا .
هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اذا وضعنا في اعتبارنا أن الجبرتي
ووالده كانا من الاغنياء ، ولم يحصلوا على الثروة عن طريق الهدايا ،
فكأنه أراد أن يقول أين هؤلاء الشيوخ منه ومن والده .

ومن هؤلاء الشيوخ الذين غمز عليهم الجبرتي الشيخ محمد
البلیدی ت ١١٣٦ هـ / ١٧٦٢ م . المغربي الاصل والذي كان معاصرا
لوالده فيقول عنه « حسن اعتقاد الناس فيه وانكبوا على تقبيل يده
وزيارته خصوصا تجار المغاربة لغلبة الجنسية فهادوه وواسوه

واشتروا له بيتا بالعطفة المعروفة بدرت الشيشنى وقسطوا ثمنه على أنفسهم » (٦٣) .

فالجبرتى يغمز هنا على الشيخ البليدى عندما يشير الى بناء المغاربة له بيتا ، فى حين أنه يذكر فى ترجمته لوالده حسن الجبرتى أن بعض الأمراء عرضوا على والده بناء منزل جديد له بدلا من منزله بالصنادقية الذى صار ضيقا عليه ، وعلى تلاميذه الذين يقيمون معه ، لكن الشيخ حسن الجبرتى رفض هذا العرض (٦٤) .

ومن هؤلاء الشيوخ الذين غمز عليهم الجبرتى ولمز ، الشيخ محمد الحفنى ت ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م الذى كان معارضا لوالده أيضا . وكان فى بداية أمره فقيرا ثم أصبح غنيا بعد حصوله على هدية من أحد الأغنياء ، ولذا فان الجبرتى يتحدث فى احواله اثناء فقره ثم يشرح كيف أصبح غنيا فيقول أنه كان « فى شدة من ضيق العيش والنفقة فاشتري دواة وأقلاما وأوراقا واشتغل بنسخ الكتب فشق عليه ذلك خوفا من انقطاعه عن العلم ، فبينما هو فى بعض الدروس اذ جاءه رجل وانتظر حتى فرغ من الدرس فقال له يا سيدى أريد أن أكلمك كلمتين وأشار الى مكان قريب فسار معه حتى أنتهيا الى المدرسة المعنية ، فدخلاها ثم جلسا فأخرج الرجل محرمة ملانة بالدرهم وقال يا سيدى فلان يسلم عليك وقد بعث لك معى بهذه الدراهم ويرد أن يحظى بقبولها فأخذها منه وفتحها وملاؤه من الدراهم ، وأراد اعطاءها لحاملها وامتنع وحلف لا يأخذ شيئا ثم فارقه ذلك الرجل ، وذهب الشيخ الى البيت وكسر الاقلام والدواة ، فأقبلت عليه الدنيا » (٦٥) .

(٦٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٣٩٠ .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

ويترجم الجبرتي للشيخ حسن المقدسي فيغمر عليه حين يقول أنه « أبتنى منزلا نفيسا مشرفا على بركة الازبكية بمساعدة بعض الأمراء » (٦٦) .

ومن الشيوخ الذين كانوا في مبدأ أمرهم فقراء ثم أصبحوا أغنياء ، ولم يتركهم الجبرتي وحالهم ، الشيخ عبد الله الشرقاوي ت ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م الذي تولى مشيخة الازهر وكان معاصرا له ، فيصف حاله أثناء فقره فيقول أنه : « كان في قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة ، فلا يطبخ في داره الا نادرا وبعض معارفه يواسونه ويرسلون اليه الصفحة من الطعام أو يدعونه ليأكل معهم » (٦٧) ثم يتحدث عن طريقة حصوله على الثروة فيقول : « ولما عرفه الناس واشتهر ذكره ، فواصله بعض تجار الشوام ، وغيرهم بالزكوات والهدايا والصلات ، فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه » (٦٨) .

وواضح من هذا النص مدى تعرض الجبرتي للشيخ الشرقاوي ، وذلك عندما أثار الى اعطاء التجار الزكاة للشرقاوي ، والواقع أن الجبرتي لم يكتف بالنسبة للشيخ الشرقاوي بهذا الحد من النقد لانه هاجمه بعد ذلك صراحة ، وهو ما سنشير اليه فيما بعد .

وفي الوقت الذي يغمر فيه الجبرتي ويلمذ على معاصري والده ومعاصريه الذين كانوا في مبدأ أمرهم فقراء ثم صاروا أغنياء ، فانه لم يجد غضاة في الاثارة بقبول والده الهدايا من الامراء المماليك . وذلك لعفة والده وعدم تطلعه لما في أيدي الغير (٦٩) ولعله كان يرى أن قبول والده الهدايا شيء ، لانه غنى في الاصل ، وعطف

(٦٦) المصدر السابق ، ص ٣١٢ .

(٦٧) المصدر السابق ، ص ٤ ، ص ١٦٠ .

(٦٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦٩) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

الامراء والماليك والتجار الاغنياء على الشيوخ الذين كانوا فقراء
في مبدأ أمرهم ، شئ آخر •

ب - الشيوخ الذين انتقدهم الجبرتي وهاجمهم صراحة :

انتقد الجبرتي مجموعة كبيرة من شيوخ أواخر القرن الثامن
عشر لتخليهم عن الصفات التي اتصف بها شيوخ النصف الأول من
القرن الثامن عشر ، وأهمها الزهد والورع ، فقد اهتم غالبية شيوخ
أواخر القرن الثامن عشر بجمع المال والثروة ، هذا من ناحية ومن
ناحية أخرى فقد انتقدهم الجبرتي لسوء أخلاق بعضهم وتخليهم
عن الصفات الحميدة التي يجب أن يتمتع بها العلماء الذين هم حملة
القرآن والسنة والشرع الشريف •

كذلك هاجم الجبرتي البعض لتأييدهم سياسة محمد علي
ووقوفهم الى جانبه ، مما أتاح له في النهاية ضرب الزعامة الشعبية
ممثلة في عمر مكرم • وهم في تأييدهم لسياسة محمد علي كانوا مدفوعين
بحب جمع المال والثروة ، وقد أغراهم محمد علي بذلك حتى يدخلهم
في صراع مع بعضهم ويمكنه في النهاية من ضربهم ، وهذا ما تمكن
محمد علي في تحقيقه في النهاية •

ومن الشيوخ الذين هاجمهم الجبرتي لسوء أخلاقهم وعدم
ورعهم ، الشيخ أحمد السقاط ت ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م الذي يقول عنه
أنه كان « من دهاة العالم يسعى في القضايا والدعاوى ، يحيى الباطل ،
ويبطل الحق بحسن سبكه وتداخله » (٧٠) •

ومن هؤلاء الشيوخ أيضا ، الشيخ عبد الباسط السنديوني
ت ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م الذي يصفه الجبرتي بأنه « كان قليل الدرع

في بعض سفاسف الامور» (٧١) ثم يحكى قصة خلافة مع امرأة عجوز حول قطعة أرض مقدارها فدان ونصف فيقول : « اتفق أنه متنازع مع عجوز في فدان ونصف طين مدة سنين وأهين بسببها مرارا في أيام مشيخة الشيخ عبد الله الشبراوى والشيخ الحفنى ، ورأيته مرة يتداعى معها عند شيخنا الشيخ أحمد العروسى فنهاه الشيخ أحمد العروسى عنها ولامه فلم يئته ، فاحتد الشيخ وقال والله لو كان هذا الفدان ونصف لى فى الجنة ونازعتنى هذا العجوز عليه لتركته لها ، ولم يزل ينازعها وتنازعه الى أن مات ، وغير ذلك من أمور يستحى من ذكرها فى حق مثله ، وبذلك قلت وجاهته بين نظرائه » (٧٢) •

ومن شيوخ أواخر القرن الثامن عشر الذين هاجمهم الجبرتى صراحة وعلمنا ، لسوء اخلاقهم ، الشيخ حسن الكفراوى ت ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م ، الذى ارتبط بأحد المشعوذين ، ويدعى الشيخ صادومة يروع أمره عند الناس والامراء ، وأبرزه على أنه أحد الاولياء الصالحين ، الى أن انكشف أمر ذلك المشعوذ على يد يوسف بك أحد الأمراء المماليك ، الذى أعدم الشيخ صادومة بالقائه فى النيل ، ثم عزل بعد ذلك الشيخ الكفراوى من الوظائف التى كان يتولاها وأهمها وظيفة الافتاء •

وفى ذلك يقول الجبرتى ، بأنه اجتمع « بالشيخ صادومة المشعوذ • ونوه بشأنه عند الامراء والناس وأبرزه لهم فى قالب الولاية ويجعل شعوزته وسجياه من قبيل الخوارق والكرامات الى أن اتضح أمره ليوسف بيك فتعامل عليه وعلى قريبه الشيخ المترجم من أصله ، ولم يتمكن من ايدائهما فى حياة سيده — الذى كان يعتقد فى الشيخ الكفراوى — فلما مات سيده قبض على الشيخ صادومة والقاه فى بحر

• (٧١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

• (٧٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

النيل ، وعزل المترجم من وظيفته المحمدية والافتاء ، وقلد ذلك الشيخ أحمد بن يونس الخليفى ، وانكشف باله وخمد مشعال ظهوره بين أقرانه « (٧٣) » .

وكانت وظائف التدريس بالازهر يتوارثها الابناء عن الآباء ، وأدت هذه الحالة الى وجود علماء ومدرسين ضعاف لا يستحقون هذه الوظائف ، فى الوقت الذى كان فيه بعض تلاميذ الشيخ المتوفى أحق بهذا المنصب ، وقد ثار الجبرى على هذا التقليد وانتقد هؤلاء الشيوخ الضعاف الذين أغتصبوا حق غيرهم الاجدر به ، ومن هؤلاء الشيوخ الذين انتقدهم الجبرى لتوليهم وظائف التدريس بالازهر عن طريق الارث ، لا عن طريق الكفاءة ، الشيخ أحمد النظراوى ت ١٢٠٧ هـ / ١٧٢٢ م الذى تولى وظيفة التدريس بالازهر بعد وفاة والده بدلا من الشيخ على الصعيدى تلميذ والده والذى كان أهلا لهذه الوظيفة ، ولذا فان الجبرى ينتقد هذا الوضع ويقول أن الشيخ أحمد النظورى قد تولى هذه الوظيفة بالرغم من « قلة بضاعته ولثغة فى لسانه » (٧٤) ولا يكتفى الجبرى باظهار عيوب الشيخ أحمد النظراوى العلمية والخلقية ، بل يظهر عيوبه السلوكية فيقول عنه أنه كان « ذا دهاء ومكر وتصدى للدعاوى » (٧٥) .

أما الشيوخ الذين هاجمهم الجبرى لاستغلالهم للغير ، فكان منهم الشيخ حسن بن سالم الهوارى ت ١١٢١٠ هـ / ١٧٣٥ م شيخ رواق الصاعدة ، فيحكى عنه الجبرى قائلا : « اشترى خرابة بسوق القشاشين بالقرب من الازهر وعمرها دار السكة وتعدى حدوده وجار على أماكن جيرانه وهدم مكتب المدرسة السنانية ...

(٧٣) المصدر السابق ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

(٧٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

من غير تحاشي أو خشية لوم مخلوق أو خوف خالق ، وأوقف أعوانه من الصعايدة المنتسبين للمجاورة وطلب العلم يسخرون من يمر بهم من حصر الترايين الاعيان المارين عليهم فيستعملونها في نقل تراب الشيخ لاجل التبرك أما قصرأ أو محابة ويأخذ من مياسير الناس والسوقة دراهم على سبيل القرض الذى لا يرد ، وكذلك المؤن حتى تعود على هذه الصورة ومكن فيها وأحدق به الجلاوزة من الطابة يفدون ويروحون فى الخصومات والدعاوى ويأخذون الجمالات والرشوات من المحق والمبطل ، ومن خالف عليهم ضربه وأهانوه ولو عظيمما من غير مبالاة ولا حياة ، ومن اشتد عليهم اجتمعوا عليه من كل فج حتى بوابين الوكائل وسكان الطباق وباعة النشوق ، وينسب الكل الى الأزهر ، ومن عزلهم أو لامهم كفروه ونسبوه الى الظلم والتعدى والاستهزاء بأهل العلم والشريعة ، وزاد الحاز ، وصار كل من رؤساء الجماعة شيخا على انفراده يجلس فى ناحية ببعض الحوانيت ويأمر وينهى ، وفحش الامر الى أن نادى عليهم حاكم الشرطة ، فانكفوا ومرض شيخهم بالتشنيج شهور أو توفي فى هذه السنة « (٧٦) . وبعد ذلك يعلق الجبرتى ساخرا فيقول « رحمة الله تعالى » (٧٧) .

ومن الشيوخ المستغلين للغير والذين هاجمهم الجبرتى صراحة الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وقد رأينا فيما سبق كيف غمز عليه الجبرتى ع حين أشار الى فقره ثم غناه ولم يكتف الجبرتى بذلك ، انما هاجم الشرقاوى صراحة ، فرصد تصرفاته المالية غير المشروعة واستيلائه على أموال الغير ، من ذلك استيلائه على أموال الفارين من وجه الفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية ، وعندما كان الشرقاوى رئيسا للديوان الذى أنشأه بونابرت ، واخذه الهدايا ممن لهم قضايا أمام الفرنسيين ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « انتفع فى ليهمهم — يقصد

(٧٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٧٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

الفرنسيين — بما يتحصل اليه من المعلوم المرتب له عن ذلك — يقصد رئاسته للديوان وقضايا وشفاعات لبعض الاجناد المصرية وجعالات على ذلك باستيلاء على تركات وودائع فرجت أربابها في حادثة الفرنسيين واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها « (٧٨) » .

ثم يشير الجبرتي الى استيلاء الشرقاوى على بعض الاوقاف التى كان ناظرا عليها من ذلك استيلائه على ساقية خانقاه خوند طفاى التى كان ناظرا عليها ، وفي ذلك يقول الجبرتي « أن المترجم أبطل الساقية — يقصد ساقية الخانقاه المذكورة — ويبنى مكانها زاوية وعمل لنفسه بها مدفنا وعقد عليه قبة وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عال مربع وعلى أركانه عساكر فضة وبنى بجانبها قصرا ملاصقا لها يحتوى على أروقة وسكن ومطبخ وكيلا ، وذهبت الساقية ضمن ذلك وجعلها بئرا وعليه خرزة يمائون منها بالذلو ، ونسيت تلك الساقية وانطمست معالمها وكأنها لم تكن « (٧٩) » .

أما الشيوخ الذين هاجمهم الجبرتي لتعاونهم محمد على ، بالاضافة الى استغلال البعض منهم للأخر ، ووطمهم في الدنيا ، فنجد في مقدمتهم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف فقد أظهر الجبرتي شماته فيه وذلك عندما نقله محمد على الى دمياط عام ١٨٠٩ فقال : « وأما السيد عمر فان الذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان طالما سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحد « (٨٠) » .

ومن هؤلاء الشيوخ أيضا ، الشيخ أبو الانوار السادات ت ١٢٢٨ / ١٨١٣ م ، فقد انتقده الجبرتي نقدا لاذعا لعدم رضائه عن أخلاقه وتصرفاته المالية والسياسية ، فبالنسبة لأخلاقه

(٧٨) المصدر السابق ، ص ٤ ، ص ١٦١ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ١٠١ .

فقد رأينا كيف انتقد الجبرتي صديقه الخشاب على صداقته للشيخ السادات الذى وصفه بأنه « كثير التلوث على جلساته » (٨١) .

أما بالنسبة لسلوكه المالى فيقول عنه أنه كان « يكتتب ويشاحح على أدنى شئ ويحاسب ولا يدفع لارباب الاقلام عوائدهم المقررة فى الدفاتر ، بل يرون أن آخذها منه من الكبائر » (٨٢) ، ومن ذلك أيضا معاملته للمشرفين على الاضرحة التى نظارته مثل المشهد النفيسى والزينى ، اللذين كانت تأتى الناس اليهما بالقرابين والنفذور فيقول الجبرتي أنه كان « بما تستهم على الذرات ويسبهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم » (٨٣) .

ويشير الجبرتي كذلك الى اهتمام الشيخ أبى الانوار السادات بالنواحي الدنيوية فيقول : « وأنى غالب عمره فى تحصيل الدنيا وتنظيم المعاش والرفاهية واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجوارى والماليك والعبيد والجیوش الخصيان والتأنق فى المأكى والمشارب والملابس » (٨٤) .

وعند كبر شأن الشيخ أبى الانوار السادات وأخذ يضرب الفلاحين فى بيته بالامراء والماليك وحاكم الشرطة انتقد الجبرتي ذلك التصرف قائلا : « فكان كل قليل يقع فى بيته الضرب والاهانة لافراد الناس ، وكذلك فلاحو الحصص التى حازها والتزم بها فانه زاد فى خراجهم عن شركائه ويفرض عليهم زيادات ويحبسهم عليها شهورا ويضربهم بالكراييج ، وبالجمله فقد قلب الموضوع وغير

(٨١) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

(٨٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٨٣) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٨٤) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

الرسم المطبوع ، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد وولاية واعتقاد ، فصار كبيت حاكم الشرطة ، يخافه من غلط أدنى غلط » (٨٥) .

وعندما نفى محمد على السيد عمر مكرم الى دمياط ، وولى بدلا منه الشيخ السادات لنقابة الاشراف ، كتب الاخير محضرا الى الدولة العثمانية بناء على توجيه محمد على ، نسب فيه الى السيد عمر مكرم كثيرا من التهم (٨٦) ، علق الجبرتي على ذلك قائلا : « وغير ذلك من عبارات عكس القضية وتنميق الاغراض النفسانية » (٨٧) .

وحينما يدعى الشيخ أبو الانوار السادات أنه خاتمة أولياء أسرته ، وانه لم يأت من يصلح للمشيخة غيره ، يعلق الجبرتي على ذلك قائلا : « ولم يعلم أنه ربه لم يزل خلافا ، وأن الولاية ليست بفعل العبد ، ولا بالسعى والقصد ، قال تعالى في محكم آياته « الله أعلم حيث يجعل رسالاته » وقال سبحانه : « الا أن أولئكم الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون وان أولياؤه الا المتقون » فيسأله التوفيق والهداية والحفظ في أسباب الغواية (٨٨) .

ويصف الجبرتي ازدياد طغيانه في أواخر أيامه فيقول « ولم يزل كلما طال عمره زاد كبره ، قل بره ، وتعدى شره ، ولما ضعف تقواه تقاعد عن القيام لاعظم الناس اذا دخل عليه محتجا بالاعياء والضعف » (٨٩) .

ثم يتحدث الجبرتي عن استعمال الشيخ السادات

(٨٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٨٦) المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

للادوية المنشطة والمنعشة في أواخر أيامه ويتهم عليه فيقول
« ولا يصح العطار ما أفسده الدهر » (٩٠) .

ومن هؤلاء الشيوخ الذين نالوا قسطا كبيرا من نقد الجبرتي
وهجومه ، الشيخ محمد المهدي الحفني ت ١٢٣٥ هـ / ١٨١٥ م ، فقد
انتقده الجبرتي لسلوكه السياسي والمالي ، ذلك أن الشيخ المهدي
كان قد لعب دورا كبيرا في مساعدة محمد علي في السيد عمر مكرم ،
ونال عن ذلك مكافأته من محمد علي الذي أعطاه وظائف السيد عمر
مكرم وأهمها نظارة أوقاف مسجدى الامام الشافعى وسنان باشا ،
كما دفع له محمد علي المنكر من الغلال مدة أربع سنوات ، وقد
علق الجبرتي على ذلك قائلا : أن ذلك « نظير اجتهاده في خيانه السيد
عمر حتى أوقعوا به ما ذكر » (٩١) .

أما لتصرفاته المالية غير المشروعة مثل : الماطلة في دفع حقوق
الغير وذلك عندما أشار الى شراء الشيخ المهدي لاحد المنازل ودفع
العربون فقط لاصحابها ثم سكنها ولم يدفع لهم باقى الثمن وفى ذلك
فيقول الجبرتي أنه : « أخذ يوعدهم بدفع الثمن ويماطلهم كعادته » (٩٢) .

ومن تصرفاته المالية الملتوية التى أشار الجبرتي ، استيلاؤه على
أموال الارامل وذلك عندما زوج ابنه لجارية الشيخ الفيومى الغنية
كى يستولى على أموالها ، وفى ذلك يقول الجبرتي : « فوضع يده —
يقصد الشيخ المهدي — على دارها ومالها وجواربها وتعلقاتها من
عقار والتزام وغيره ، وزوج الجارية لابنه عبد الهادى وكأنها سقطت
بمالها ونوالها فى بئر عميق » (٩٣) .

(٩٠) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٩١) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(٩٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

وبعد أن يذكر الجبرتي وفاة الشيخ المهدي يعلق قائلا : « فسبحان
الحى الذى لا يموت ، فرحم الله عبدا ، زهد فى الفانى ، وعمل لما
يعدده ، ونظر الى هذا الدار بعين الاعتبار ، فسأله التوفيق والقناعة
وحسن الخاتمة » (٩٤) وكأن الجبرتي أراد أن يقول آيت الشيخ المهدي
قد تخلص عن تصرفاته السابقة حتى يرحمه الله .

ومن الشيوخ الذين لم يرض عنهم الجبرتي لاشتراكهم فى مؤتمر
نفى السيد عمر مكرم ، الشيخ محمد الدواخلى ت ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م ،
فغمز عليه الجبرتي حينما وهاجم حيناً آخر . غمز عليه حين أثار
الى كيفية تكوينه لثروته اثناء الحملة الفرنسية فقال أنه قد « انتفع
فى أيامهم — يقصد الفرنسيين — انتفاعا عظيما من قصد يسير لقضايا
نساء الأمراء المصرية وغيرهم . ومات والده فاستولى على تعليقاته
وأطيانه وبستانه التى ببشتول واتسع حاله واشترى العبيد والجواري
والخدم » (٩٥) .

كذلك يشير الجبرتي الى طريقة تكوينه للثروة بعد خروج الحملة
الفرنسية وعودة العثمانيين فيقول أنه « انطوى الى السيد أحمد
المحروقي — شهندر التجار — لانه كان يرأسه سرا بالأخبار حين
خرج مع العثمانيين فى الكسرة الى الشام ، فلما رجع فراعه وراثاه ،
ونوه بذكره عند أهل الدولة ، وفى أيام الامراء المصريين حين رجعوا
الى مصر بعد قتل طاهر باشا فى سنة ثمان عشرة واحتوى على رزق
وأطيان وحصص التزام ، ولبس الغراوى والاقبيصة وركب البغال ،
وأحرق به الاثياخ والاتباع » (٩٦) .

(٩٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٩٥) المصدر السابق ، ٢٩٥ .

(٩٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وبعد هذا الغمز ، يهاجم الجبرتي الشيخ الدواخلى صراحة وذلك حين يقول عنه أن « عنده ميل عظيم للقدم والرياسة ولا يقنع بالكثير » (٩٧) . ثم يشير الى أنه كان حسود للشيخ عمر مكرم ولذا فقد كان من أكبر الساعين عليه سرا مع المهدي وباقي الاشياخ حتى أوقعوا به » (٩٨) .

وعندما يموت الولد الوحيد للدواخلى نجد رنة الفرح والشماتة واضحة لدى الجبرتي فيقول : « وداخله الغرور — قصد الدواخلى — وظن أن الوقت قد صفا له فأول ما ابتداه به الدهر من نكبات أن مات ولده أحمد » (٩٩) . وكذلك عندما ينفى محمد على ، الشيخ الدواخلى ، لا يخفى الجبرتي شماتته أيضا وتشفيه فيه فيقول : « ان الذى وقع لهذا الدواخلى ، انما هو قصاص وجزاء فعله في السيد عمر مكرم فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن غزله وأخرجوه من مصر ، والجزاء من جنس العمل » (١٠٠) .

وان كان الجبرتي قد انتقد بعض شيوخ القرن الثامن عشر حين ترجم لهم ، أو حين التعرض لهم اثناء سرد الحوادث ، فانه لم يرض بصفة عامة في معظم شيوخ أواخر القرن الثامن عشر ، ومطلع القرن التاسع عشر ، لابتعادهم عن الزهد والورع اللذين كانا أهم سمعتين لشيوخ النصف الاول للقرن الثامن عشر ، وجعلنا العامة يلتفون حولهم ، أما بعد تخلى شيوخ أواخر القرن الثامن عشر عن هاتين الخلتين ، فقد زالت هيبتهم من نفوس العامة ، مما أعطى القيمة لمحمد على لضريهم دون أن تتحرك جماهير الشعب لمساندتهم .

(٩٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٩٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٩٩) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٠٠) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

وقد أعطى الجبرتي وصفا لاحوال هؤلاء الشيوخ ، فظهر مدى الظروف الذين أوقعوا أنفسهم فيه ، وفي نفس الوقت مدى الحنق والغيط الذى يكته الجبرتي لهذه الفئة من الشيوخ التى اهتمت بالنواحي الدنيوية وتركت الاشتغال بالعلم الا فى حدود ضيقة ، فقال : « وأفتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسه العلم الا بمقدار حفظ التأمين ، مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أهد الأمراء الألوف الاقدمين ، واتخذوا الخدم والمقدمين والاعوان واحروا الحبس والتعزيز والشرب بالفلقة والكرابيج » (١٠١)

ثم يتحدث الجبرتي عن خلافاتهم ، وصراهم بعضهم مع بعض حول المسائل الدينية ، فيقول : « وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد والرياسة والتفاقم على سفاسف الامور وحفظ الانفس على الاشياء الواهية مع ما جلبوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الاعين والتطلع للاكل فى ولائهم الاغنياء والمعاينة عليها ، ان لم يدعوا اليها ، والتعرض بالطلب واطهار الاحتياج لكثرة الاعمال والاتباع واتساع الدائرة » (١٠٢)

كذلك يتحدث الجبرتي عن تخليهم عن الوفاء والعفة فيقول انهم قد ارتكبوا الامور المخلة بالمروءة المسقطة للعدالة كالاكتماع فى سماع الملاحى والاغانى والقيان ، والالات المطربة واعطاء الجوائز والنقود بماداة الخلبوص وقوله واعلاماه فى المسامر وهو يقول فى سامر الجمع بمسمع من النساء والرجال من عوام الناس وخواصهم رفيع الصوت الذى يسمع القاضى والدانى وهو يخاطب رئيسه العفائى ياستى حصرة شيخ الاسلام والمسلمين مفيدا الطالبين الشيخ العلامة فلان منه كذا من النصيفات الذهب قدر مسماه كثير وجوده قليل» (١٠٣)

(١٠١) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٠٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

ثم يعلق الجبرتي على ذلك قائلا : « ان ذلك نتيجة التفاخر والكذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين انتموا بهم في فعل المحرمات الواجب عليهم النهي عنها ، كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التمسك والفقهة المسموعة من البعد في كل مجتمع ، ومواظبتهم على العزليات والمضحكات وألفاظ الكتابة المعبر عنها عند أولاد البلد بالانقطاع والتنافس في الاحداث الى غير ذلك » (١٠٤) .

ويرى الجبرتي في النهاية أن شيوخ أواخر القرن الثامن نتيجة لهذه التصرفات « قد زالت هبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا في الامور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشاركة الجهال في المآثم والمصارعة الى الولائم في الافراح والمآثم ، يتطالبون على الاسحطة كالبهائم فتراهم في كل دعوة ذاهبين وعلى الخوانات راكعين وللكباب والمحمرات خاطفين وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين » (١٠٥) .

هذا هو موقف الجبرتي من شيوخ القرن الثامن عشر ، ما بين اعجاب ، ونقد . ويتضح مما سبق أن تربية الجبرتي الصوفية قد غلبت عليه ، فجعلته زاهدا في الدنيا ، جادا لا يشترك في النهو والمرح مثل غالبية شيوخ القرن الثامن عشر ، ويرى أن مهمة العلماء هي العلم والسلام فقط ، العلم الذي فرض على المشتغلين به نوعا من الوقار ، ومن هنا كان اعجابه بالمتصوفة والزهاد المبتعدين عن مخالطة الناس ، وقبول الهدايا ، وكراهيته للشيوخ المهتمين بالامور الدنيوية المحبين لجمع المال .

(١٠٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

